حلقة مفقودة

فى نهضتنا العقلية الحديثة

بقلم الأستاذ سيد قطب

كانت نهضة مصر العقلية مقدمة طبيعية لنهضتها الوطنية والاقتصادية والاجتماعية فى العصر الحديث ، وعلى أساس تلك النهضة العقلية وما تلاها من نهضات قام مركز مصر فى العالم العربى ، وهو المركز الذى يجعل جميع شقيقاتها تتجه اليها وتستعين بها وتأخذ عنها فى بلاد الشرق كله .

فكل ما يقوى هذه النهضة إذن يقوى فى الوقت ذاته مركز مصر العالمى ، ويعد ضمانا لاطراد تقدمها الاجتماعى والاقتصادى والقومى ، مع الاحتفاظ لها بالمكان الملحوظ فى العالم العربى ، هذا المكان الذى تشغله الآن فتفيد بها نفسها ، وتنفع به أخواتها فى مناسبات شتى .

ولكل نهضة عقلية خطوات أو حلقات تعتمد الواحدة منها على الأخرى ، وتتابع هذه الحلقات جاء مطردا فى جميع النهضات العالمية من هذا القبيل ، لأنه تتابع طبيعى لا سبيل إلى قطع حلقاته ، أو تخطى واحدة منها ، إذا أريد أن تكون النهضة سليمة وقوية ومضمونة الاطراد .

هذه الحلقات هى : التطلع ، والنقل ، المحاكاة ، والإبداع .

فحين تستيقظ الأمة بعد خمول ، أو تنفصل بعد اندماج ، أو توجد بعد عدم ، تتطلع الى النهضات السابقة وتفتح أبصارها على ما عند سواها من نتاج علمى وفنى ، لا نظير له فى تراثها إن كان لها تراث . وهذا هو دور التفتح .

وبعد ذلك تتولى نقل ما يروق لها من هذا الذى تفتحت أبصارها عليه ، وأحست بالحاجة اليه ، وهذا هو دور الترجمة .

وحين تكثر المترجمات والمنقولات وتصبح هذه الكنوز الجديدة فى المتناول تنبثق آثارها فى العقول والنفوس ، وتؤثر اتجاهاتها وأدواتها فى الإنتاج ، وهذا هو دور المحاكاة .

حتى إذا تم هضم التراث الجديد وأحسنت محاكاته بدأ دور الإبداع والخلق على نسق جديد أو على نسق مطعم بالثقافات الأجنبية مع ظهور الطابع المحلى الأصيل .

وكثيرا ماتتداخل هذه الحلقات تداخلا يتعذر معه فصلها وتحديد مواضع التحامها ، ولكن هذا لاينفى ضرورة وجودها جميعا فى كل نهضة عقلية .

وعلى هـذه الأسس قامت النهضات العالمية المعروفة فى التاريخ يأخذ بعضها من بعض ويعتمد بعضها على بعض ؛ فالنهضة العربية العقلية مثلا جاءت بعد نقل مخلفات الإغريق والرومان والهند والفرس . ونهضة إحياء العلوم فى أوروبا قامت على أساس من المأثورات العربية والاغريقية واللاتينية . ونهضة مصر الحديثة كانت طلائعها فيما ترجمته البعثات العائدة من أوربا .

ومع أن النهضة المصرية قامت على نفس الأسس التى تقوم عليها النهضات عادة إلا أنها أهملت أو كادت مرحلة أساسية ، لأنها مرت بها مسرعة عجلة ، ولم تعطها حقها من الصبر والتنظيم والعناية ، تلك هى مرحلة الترجمة ، وهى حلقة تكاد تكون مفقودة فى نهضتنا العقلية الحديثة .

فلقد سارت مصر فى هذه المرحلة حينا من الزمن سيرا طبيعيا بعد عودة بعوث محمد على ، إذ توفر أعضاؤها على الترجمة والتأليف توفرا حقيقيا خلف لنا ثروة كبيرة بالقياس إلى عهدها القصير ، ثم اجتزنا بقية المرحلة ركضا لأننا استعجلنا مرحلتى المحاكاة والإبداع قبل أن نستكمل مرحلة الترجمة وهى أساس المرحلتين التاليتين .

ويبدو لى أن نهضتنا العقلية مزعزعة ، بل معرضة للانهيار بسبب هذه العجلة ، لأن طبقة المثقفين فى مصر — فيما عدا نفرا قليلا — منقطعة أو تكاد عن النهضة العالمية ، وعن المنابع الأصيلة التى تتفجر بالمعرفة ، وتفيض على الأرض كلها فى هذا الجيل .

فأصول المعرفة الإنسانية العالمية فى هذا العصر ، من النظريات العلمية والمذاهب الفلسفية والاتجاهات الفنية ، لايكاد يوجد لها أثر فى المكتبة العربية ، على عكس ما كان الحال مثلا أيام النهضة الإسلامية فى الشرق والغرب فى القرنين الثالث والرابع .

ما الذى تعرفه المكتبة العربية مثلا عن مذهب النشوء والارتقاء ، وعن نظرية النسبية ، وعن مذهب فرويد وتلاميذه ، ثم عن الرمزية والرياليزم والسوريالزم ، ثم عن المذاهب الاجتماعية الحديثة ، ثم عن الفلسفة المعاصرة والسابقة خلال مائة عام فقط فى العالم !

لاشىء إلا نتف صغيرة عن هـذه المذاهب لا عن أصولها ، وإلا اشعاعات فى أعمال المؤلفين المصريين تدل على التأثر بما قرؤا بدون تحديد مواضعه !

إن المكتبة العربية فقيرة فى هذه الأيام بالنسبة لما فى أيام النهضة الإسلامية ، وليس معنى فقرها أن عدد الكتب فيها أقل ، فهى أكثر بطبيعة الحال ، ولكنها الآن أقل تمثيلا للثقافة العالمية منها فى أيام النهضة الإسلامية ، ولقد كانت إذ ذاك تجمع أصول الثقافات العالمية مترجمة وأصول الثقافة العربية مؤلفة ، فكانت نسبيا أشمل وأكمل .

ويخيل إلى أن الثقافة المصرية الآن قائمة على أدمغة بضعة نفر قرءوا أمهات الكتب فى الثقافة العالمية ، ولم ينقلوها الى المكتبة العربية ، فلو أن حادثا — لا قدر الله — ألم بهذا النفر الذى يعد على أصابع اليد الواحدة — لا اليدين — لانقطعت الصلة بين مصر و بين أصول الثقافة العالمية إلى أن يأذن الله لنفر آخرين بالاطلاع على هذه الأصول !

ومنشأ ذلك كله أن الترجمة تبدو لبعض الناس أقل قيمة من التأليف ، فيحرص كل مثقف على أن يحمل لقب المؤلف لا المترجم ، ويؤثر لذلك أن يكتب متأثرا بما قرأه من ثقافات على أن ينقل أصلا من أصول هذه الثقافات .

وسبب آخر هو أن ترجمة هذه الأصول عمل ضخم لا يقوم به الأفراد ولا يستطيعون النهوض بتكاليفه ، وقد لا يضمنون الإقبال عليه إلا من الخاصة وعددهم قليل .

وسواء كان هذا أو ذاك فمن الواجب التفكير الجدى فى تلافيه حتى نلحق بركب الثقافة العالمية وقد سبقنا بأشواط ومراحل فى كافة الميادين .

إننا نعلم جميع أبنائنا لغة أجنبية ، وهى حالة لا نظير لها فى بلد من بلاد العالم ؛ فالمفروض أن طائفة محدودة من المتعلمين فى كل شعب هى التى تدرس لغة غير اللغة القومية ، وتتحمل هذا العناء المضيع للعمر وللاستفادة العلمية البحتة — فاللغة الأجنبية ليست ثقافة ولكنها وسيلة للثقافة — هذه الطائفة هى التى تعد لأعمال الترجمة وللأعمال المتعلقة بالخارج رسمية أو أهلية كوظائف السلك السياسى والسلك القنصلى أو الأعمال التجارية .

أما بقية المتعلمين فيدرسون لغتهم وحدها ، ويجدون فى هذه اللغة خلاصة وافية لثقافات العالم منقولة اليهم فى لغتهم . ومن هنا يرتفع رقم المترجمات فى كل لغة حية عن هذا الرقم فى اللغة العربية التى تكلف أصحابها الاطلاع على الثقافات العالمية بلغاتها الأصلية ، وكثيرون منهم يعجزون عن هذا الاطلاع بعد دراسة اللغة الأجنبية سنوات ، ثم لا يجدون فى لغتهم عوضا ولا بديلا .

ونحن فى عصر السرعة والاتصال ، فاذا عجزت لغة عن الإلمام بالكنوز الثقافية فى لغات العالم انقطعت الصلة بين عقلية أصحابها و بين العقلية العالمية ، وضاعفت السرعة من هذه القطيعة ، وتخلفت الأمة المنقطعة عن ركب الحضارة تخلفا نهائيا . وهذا هو الذى نخشاه على مصر فى عصر تتولى هى فيه زعامة الشرق العربى فى طريق النهوض .

نعم وجدت بعض الكتب المترجمة فى اللغة العربية ، ولكن قلما تناولت هذه المترجمات أصول الثقافة وينابيعها الأصيلة فى كل ناحية من النواحى ، وذلك للأسباب التى تقدم ذكرها مما يجعل هذه المهمة من واجبات الدولة لأنها هى وحدها القادرة على أدائها بما لها من قوة المال وقوة الاستمرار وقوة التوجيه .

فى روسيا مثلا هيئة ضخمة مقسمة إلى هيئات فرعية متخصصة ومهمتها هى نقل أصول الثقافات العالمية الى اللغة الروسية ، وترجمة كل عمل كبير يجد فى عالم المعرفة . والدولة هى التى تنفق على هذه الهيئة وتتولى نشر الكتب التى تترجمها . وبهذا ينشأ المتعلم الروسى فيجد فى مكتبته كل ما يحمله ركب العالم من أصول المعرفة .

أما فى انجلترا وفرنسا وألمانيا وأمريكا فقد تكفلت دور النشر بما تتكفل به الدولة فى روسيا وذلك بسبب توطد أقدام هذه الدور وعظيم مرانتها وكمال استعدادها للقيام بهذه المهمة الضخمة .

وفى مصر وجدت لجنة التأليف والترجمة والنشر ولكنها أضعف من أن تنهض بهذه المهمة الضخمة بسبب ميزانيتها المحدودة ، وبسبب ضخامة الثروة العقلية التى فاتت المكتبة العربية فى هذا الزمن الطويل .

فلا بد إذن أن تنهض الدولة بهذا الواجب كما نهضت به الدولة فى روسيا . وقد أنشئت فى وزارة المعارف ادارة لهذا الغرض منذ تولى الدكتور طه حسين بك مراقبة الثقافة العامة بها قبل أربع سنوات ؛ ولكن هذه الإدارة بعدد موظفيها وبميزانيتها المحدودة لا تستطيع أن تصنع إلا القليل فى هذا السبيل ولا بد من وضعها على أسس جديدة لتنهض بالعبء الفادح فى تاريخ النهضة الحديثة .

ومتى نظر المسئولون فى الدولة الى هذه المسألة بالعين التى ننظر بها اليها ، وعدوها مسألة النهضة العقلية التى تقوم عليها النهضة القومية والاقتصادية والاجتماعية ، كما يقوم عليها مركز مصر فى الشرق والعالم ، فانهم سيجدون تكليفها هينة بالقياس إلى عملها الجليل .

فالمكتبة العربية يجب أن تضم أصول المعرفة الإنسانية من كل لغة والمعرفة الإنسانية تقوم الآن على عدد من النظريات والمذاهب والأعمال العلمية والفلسفية والفنية التى أصبحت عالمية فى انتشارها وفى تأثر الفكر الإنسانى بها فى جميع بلاد العالم المتمدين .

ويمكن مع التواضع الشديد أن نقول : إن ألف كتاب من شتى اللغات قد تحيط بهذه النظريات والمذاهب والأعمال فى شتى فنون المعرفة الإنسانية ، وذلك حتى نلحق بركب العالم أو نرى سالم طريقه التى يقطعها ركضا فى القرن الأخير .

ونحب أن نعرض إحصائية ذات أرقام لما يكلفه هذا العمل من الوقت والمال .

تحاسب إدارة الترجمة فى وزارة المعارف بعض من تعهد اليهم بالترجمة من غير موظفيها على مليم لكل كلمة .

فاذا فرضنا أن لدينا ١٠٠٠ كتاب فى كل كتاب ٥٠٠ صفحة، وفى كل صفحة ٢٥ سطرا، وفى كل سطر ١٠ كلمات كان المبلغ المطلوب بالجنيهات هو :

١٠٠٠ × ٥٠٠ × ٢٥ × ١٠ ÷ ١٠٠٠ = ١٢٥ ألف جنيه .

فاذا وزعنا هذا المبلغ على عشر سنوات كان المطلوب فى كل سنة هو ١٢,٥٠٠ جنيه فقط . فهلا تشترى الأمة ثقافة العالم بهذا المبلغ الزهيد الذى يضيع فى مظهر من المظاهر الزائلة كل عام ؟

ونحن نقدم هذا الحساب على اعتبار أن هذه الكتب لن تأتى بايراد غير تكاليف الطبع ولكننا حين ننظر فنجد فى السوق أعمالا تجارية رائجة قائمة على طبع الكتب وبيعها ، نعلم أن هذا الحساب فيه كثير من المبالغة وأن تكاليف المشروع على أكبر تقدير قد لا تزيد على خمسة آلاف جنيه فى العام .

تستطيع الدولة إذن بميزانية صغيرة أن تكفل للمكتبة العربية أصول الثقافة الانسانية وأن تتابع التأليف العالمى فتنقله بعد ذلك أولا بأول ، وتتيح للقارئ العربى "فى لغته" ما يتاح للقارئ فى جميع اللغات .

والطريقة الطبيعية ألا تتولى هى مهمة الترجمة الفعلية ، فتولى مثل الأعمال ليس من طبيعة الحكومات الديموقراطية . ولكن أن تكبر إدارة الترجمة بحيث تصبح قادرة على الإحاطة بجميع ألوان الثقافات العالمية ، ثم تكل إليها أمر الإشراف على اختيار الكتب التى تمثل كل لون من هذه الألوان حق التمثيل ، ثم تعهد بهذه الكتب إلى متخصصين فى موضوعاتها قادرين على نقلها وتتولى هى عمل المراجعة والإشراف على الطبع ، كما تتولى تشجيع الهيئات الحرة التى تنهض بهذه المهمة بإرشادها ، فتكل إليها ترجمة بعض الكتب وطبعها ونشرها بوسائلها الخاصة مع اعانة مالية تضمن لها الربح وتشجعها على العمل .

وبهذه الوسيلة لا تمضى سنوات حتى تكتمل المكتبة العربية وتضمن الأمة أنها سائرة مع الركب العالمى فى شوط الحضارة الإنسانية .

سيد قطب